١ / إدراك مشوه أم رؤية جزئية ؟

- عودة البصر
- فانتازيا اليقين
- الدرس المستفاد
- امام المحاكم
- نظرة بيولوجية

عودة البصر

يبدأ هذا الفصل بقصة روتها الصحافة منذ عدة سنوات ، فقد ظهرت فى «نيويوركر» قصة رجل يدعى أوليفر ساكس ، ويدعوه أهله وأصدقاءه ڤيرچيل . ذلك الرجل مر بسلسلة من الأمراض فى طفولته ، فظل لا يبصر من جرائها لمدة ٤٥ عاماً، إلى أن حثته خطيبته ليبحث عن علاج للمياة البيضاء (عتامة فى عدسة العين) التى يعانى منها . وقيل أيضاً إنه كان يعانى من التهاب الشبكية الصبغى ، ذلك المرض الذى يؤدى إلى تآكل الشبكية ببطء ، ولكنه ظل يميز الضوء والظلام ويستطيع تحديد اتجاههما ، وكذلك يمكنه معرفة ظل اليد إذا تحركت أمام عينيه . وعند جراح العيون ، وبعد استرجاع التاريخ الطبى له ، ثم إجراء فحص دقيق لعينيه ، وجد الطبيب أن الشبكية مازالت تستطيع القيام بوظيفتها . وهكذا قرر الجراح أنه يستطيع القيام بإجراء جراحة لعينه اليمنى لإزالة المياه البيضاء ، ثم زرع عدسة جديدة ليستعيد الرؤية بها . وتباينت ردود أفعال أسرته تجاه هذه الجراحة ، فقد رفضتها والدته قائلة : «إنه يبدو على نحو ممتاز هكذا» ، وساكس نفسه لم يبد استحسانا لذلك الأمر . ولكن خطيبته كانت شديدة التصميم ، وقد فضلت السعى من أجل الشفاء الجزئى فقد كان ذلك فى رأيها أفضل من عدم الرؤية مطلقاً . وفيرچيل لن يفقد شيئاً ، وعلى العكس تماماً فقد يربح رؤية لعالم أكثر اتساعاً .

وأجريت الجراحة . وفى خضم القلق والخوف من كل المتجمعين حول سريره ، قام الطبيب برفع الضمادة من فوق عينيه . وجاءت اللحظة الدرامية شديدة الوقع ، والتى تحكى لحظة أعظم من كل القصص ، التى روت مشاعر الانعتاق والخلاص. فى هذه اللحظة بدأ مجال البصر يعبر مجال عدم تمييز الرؤية إلى الواقع ، الذى برز فجأة بكل أبعاده المدهشة . فى تلك اللحظة التى استعاد فيها ساكس بصره ، ظل صامتاً كأنه لم يشعر بأن شيئاً حدث – نهائياً – ولم ينفجر ليعبر عن فرحة طاغية قائلاً : «أنا أستطيع الرؤية» ، بل لم ينبس بكلمة ، وظل يحدق فى ذهول بوجه خال من التعبير أو أى انفعال ذى معنى ، ولم يتجه ببصره إلى الجراح الذى وقف مشدوهاً وممسكاً بالضمادة . فقط حينما تحدث الجراح قائلاً : «حسناً» ، بدت نظرة تمييز على وجه ڤيرچيل .

وعلى الرغم من أن ڤيرچيل كان يستطيع فى تلك اللحظة أن يبصر «فسيولوچيا» أو «حرفياً» ، لكنه ببساطة شديدة قابل الأشياء كلها فجأة ، ودون توقع أو فهم ، فتأخر فى التعبير عن انفعاله ؛ فقد كان عالماً من أشياء غير محددة وخطوط وألوان ، تداخلت جميعها ، ولم تكن لديه رؤية مسبقة واضحة لتحديد مغزاها – أو حل شفرتها – فقد كان عالماً ضبابياً لا وضوح لهويته .. ومن داخل ذلك الضباب خرج صوت الطبيب ، وحينذاك – فقط – أدرك أن هذا الضوء وذلك الظل كانا وجهاً .. وأنه حقيقة بدأ يرى وجه الطبيب .

بعد تلك الجراحة خرج ڤيرچيل مبصراً ، إلا أنه عانى عتامة ذهنية مفاجئة ، فهو لم يكن قادراً على ايجاد معنى الأشياء وكشف هويتها ، ولم يستطع بلورة إدراكها ، فهو لا يملك ذاكرة الرؤية التى تعينه على أمره هو شخص اعتاد الأشياء بسماعها أو الإحساس بها ، ولم تكن له قدرة على الاستدلال عليها فى وقت متزامن مع رؤيتها . فالإنسان الذى اعتاد الإبصار يعتقد أنها وظيفة أتوماتيكية تحدث تلقائياً ، ولكنها فى حقيقتها وظيفة ضخمة ولا تحدها قوالب ، فهى تعبر عن مخزون لعمليات تحددت وتكونت فى السنوات الأولى من الحياة ، حتى أصبحت تلقائية لأنها تتكرر آلاف المرات فى كل لمحة .

ويتجادل أخصائيو النفس والأعصاب مع الفلاسفة ، ومع كل من يهتم بمعرفة الحد الذى يتقابل فيه خلايا المخ والعين مع النفس لاستقبال الأشياء ومدلولها للفرد. وقد نشرت بعض الآراء ، التى تعيد تصور قصة ساكس مع التفسير العلمى لها . فنمو خلايا قشرة المخ يتأثر بفقدان الطفل لحاسة مهمة - كالإبصار - فى سن مبكرة ، لأنها فى تلك المرحلة العمرية تستطيع التكيف لاستقبال الأشياء حولها . أما فى حالة ڤيرچيل فيتم تكييف الأشياء فى الوقت ، وليس فى المكان ، وذلك يفسر معاناته فى الإبحار فى عالم الرؤى ، الذى لا يعتمد على السمع أو اللمس . والإبصار ينتقل بأكثر مما تراه العين من خلال التدريب المستمر على الإحساس الكامل بالعالم ، أو بعبارة أخرى يمثل الإبصار القدرة على رؤية العالم والتفاعل مع تلك الرؤية ، مشتملاً على الخبرة المسبقة بذلك الشئ . وهكذا تصبح الرؤية حاسة فردية خاصة بكل إنسان ؛ فالأشياء التى نراها تدعمها الخبرة ، ثم تحديد الرؤية للشئ بجانب ما نراه . وعادة ما تمتزج تلك المرئيات بتفسير آخر فتختلط بين الصورة الصادقة الحالية مع تلك المسبقة ، ثم تتأثر بوجهة نظر الرائى فيما يراه ، فتظهر بصورة ذاتية جديدة تتكون بداخله ؛ لأن حل مغاليق الأشياء وتقسيمها وتنويعها ثم تفسيرها لا تمثل شئياً يولد الإنسان به ، ولكنه يتكون وينمو مع ظروف الحياة الخاصة بكل شخص .

فانتازيا اليقين

ومدلول الرؤية والرؤية المسبقة يمكن تقديم مثال لها فى شريط ڤيديو ، يحكى عن شخص أسود اللون يدعى روندى كينج ، تلقى ضرباً وحشياً بالهراوة من رجال الشرطة فى لوس أنجلوس . وعلى الرغم من أن ذلك الشريط يعطى دليلاً واضحاً على مدى سوء المعاملة التى تلقاها هذا الشخص ، إلا أن جدلاً ونقاشاً مستمراً دارا حول وجهات النظر المتعددة والافتراضات الممكنة جدلاً حول حقيقة الرؤية لتلك الأحداث؛ فقد رأى معظم الناس أنه يتضمن أسلوباً بدائياً وعرقياً لإظهار القوة . ذلك الأسلوب تمثل فى ضرب إنسان أسود لا يملك سلاحاً ، ولا وسيلة للدفاع عن

نفسه . أما هيئة المحكمة – فى سيمى ڤالى – فقد رأت الأمر مختلفاً ، فرجال الشرطة فى موضع خطر بضربهم لذلك الإنسان ، وأنهم – وعددهم ٢٦ شرطياً – كانوا يؤدون واجبهم على خير وجه !!!

وقد بدا الشريط وكأنه مدخل غامض للحقيقة فقد استند الدفاع عن رجال الشرطة إلى تقديم الشريط بطريقة أخرى بعد استدعاء خبراء لهذا الغرض ؛ فقد عرضوا شريط الڤيديو بحيث تقف الصورة عند لحظات معينة ، ثم يقدم تفسيراً لما يراه الحضور من تحرك جسم كنج ، وموضع الهراوة المستخدمة لضربه . ومن وجهة نظر الخبراء لم يجدوا حركة زائدة أو غير ضرورية لاستخدام الهراوة مع ذلك الإنسان، الذى قيل عنه إنه مثل الدب فى قوته ، ومحصن ضد الألم ، وكان يعانى نوبة عصبية شديدة بعد تناوله عقاراً مخدراً . وهكذا كان رجال الشرطة يؤدون مهمة صعبة وقانونية ؛ ليتمكنوا من التحفظ على ذلك المتهم .. وبذلك يصبح هذا الشريط دليلاً على ما قاسوه ، ويوضح اللحظات الصعبة التى خلقهـا المتهم لهـم جميعاً .. لا على وحشية المعاملة التى واجهها المتهم من رجال الشرطة .

وعلى الرغم من الاتجاه المخالف الذى مثل وجهة نظر كثيرين ، إلا أن المحكمة أعلنت تأييدها لموقف الشرطة ، ولم يلق المحلفون بالاً إلى حقائق واضحة صاحبت هذه الحادثة البشعة، واستندوا فى حكمهم إلى فانتازيا اليقينية (Positivist fantasy) .

وبالاستناد إلى تلك الفانتازيا ، قد نفسر عدم قدرة ڤيرچيل على تفسير مشتملات العالم الذى واجهه فجأة ، فلم يكن لديه «شريط» سابق للقراءة فى ذاكرته ؛ لكى يحيط بما حوله فى تكوين متناسق ليحس بما تعنيه هذه الأشياء . وبالرجوع ثانية إلى شريط الڤيديو ، فلو تصورنا عرضه مع الإيحاء بأنه يمثل القهر العنصرى ، وكيف أن البيض الذين يمسكون بزمام الأمور هم أنفسهم الذين يستخدمون الهراوة ، سيرى المشاهد حينذاك أن تلك الممارسة تقدم نموذجاً للعنصرية البدائية .

وقد أعيد عرض الشريط نفسه بساحة القضاء فى سيمى ڤالى . وفى هذه المرة اختلفت فحواه ، وبدا فى اتجاه مختلف ؛ فقد ظهر تضارب أساليب الحياة ، أو بقول آخر الطرق الخاصة فى ترتيب وتنظيم العالم . فقد طلب المدافعون فى هذه القضية رؤية الشريط بصورة مجردة ، ودون مؤثرات خارجية لتأكيد أفكار معينة . وواحدة من تلك الأفكار أن «السود» أخذوا مكانهم فى العمل فى سنوات حكم الرئيسين ريجان وبوش ، تلك السنوات التى تعد «سوداء» فى حياة الدولة ، وقد كان ذلك الاتجاه مصدراً للاضطراب المدنى والفساد الاجتماعى ، وصوروا رغبة البعض فى سلب

حقوق الآخرين. وبناء على ذلك لابد من تلقينهم درساً لا ينسونه ؛ ليوضعوا فى مكانهم الحقيقى . ولقد كانت تلك التعبيرات ، والتركيز على «الأسود» و «السواد» أمام الكونجرس وساحات القضاء وأمام الجمهور ووسائل الإعلام مؤهلاً للجميع كى يشاهدوا الوقائع بالروية المعدة لها قبل عرضها ، وأن يستحضروها بالرؤية نفسها ، وهكذا التصق هذا المعنى بصداه الثقافى لتقبل الغالبية ما حدث من إمالة فى الحقيقة.

الدرس المستفاد

وعلى ذلك النحو المشار إليه ، فإن محصلة الرؤية الجزئية والرؤية المنقولة التى تنفذ إلينا من تكنولوچيا التكاثر الحديثة وتقنيات الوراثة ، يتم تكوينها بإمعان النظر فى تفاصيل هذه الموضوعات ؛ حتى لا تحيد عن الرؤى المنطقية ، فلا نتعصب ضدها ولا ننساق وراء ما تتيحه من تطبيقات ؛ فقد وجدت تلك الوسائل كثير من المواقف والصلات ، التى لا يمكن قبولها أو تحديدها اجتماعياً وثقافياً أو تقنينها حسب القوانين السائدة ، وكان لزاماً على المسئولين إعادة التعريف بالمفاهيم الثابتة وايجاد إطار أو تشكيل جديد لما تكون حالياً من مفاهيم ؛ فبتطبيق تلك الوسائل أصبح رحم المرأة يعد من المنافع العامة، والأجنة تعد حملاً مشاعاً ، والحمل مقترناً بالأسر والعبودية ، وبات مفهوم الأمومة الطبيعية مشوشاً ، لا يخضع لتشريعات الأديان أو القيم الاجتماعية .

أمام المحاكم

وقد بدأت سلسلة من القضايا الناتجة عن تلك الاستخدامات ، بظهور قضية الطفلة «م» أمام محكمة نيوچيرسى كأول مولود لأم بديلة . وشغلت ساحة القضاء بإيجاد الحدود الجديدة التى صنعها العلم ، ولم تكن قد استقرت بعد فى التشريعات الموجودة آنذاك . فبدأت المحكمة فى إعادة تصوير الشكل الطبيعى للأسرة ، وفصله وتحديد عما استجد من علاقات وصلات للقرابة والنسب . فقد أنتجت التكنولوچيا طفلها فى القرن العشرين ، الذى يولد بلا أب وبلا أم – بالمفهوم التقليدى المتوارث – وظهرت الحاجة إلى مجموعة من التعريفات الضرورية ؛ لوضع الإطار للصورة الملائمة للأسرة ، فلابد من ملاءمة الصورة لتتفق مع الأساليب المرعية والعرف السائد حتى تكون الأسرة مقبولة اجتماعياً ، ويمارس أفرادها حياتهم بصورة تامة : يؤدون واجباتهم ويعرفون حقوقهم ويكونون كياناً اجتماعياً جديداً محد ، حسب الأعراف والتقاليد السائدة فى المجتمع .

وبطريقة مماثلة .. كانت آنا جونسون ، المرأة السوداء التى حملت كأم بديلة ووضعت مولوداً أبيض اللون . ثم بدأت مشوارها باحثة عن حقها فى حضانته . فهى لا ترتبط به چينياً ، ولكن ارتباطها به نشأ ، ونما خلال فترة الحمل ، وباءت محاولتها بالفشل ، ورفضت المحكمة طلبها ؛ حيث إنها لا تمثل للطفل إلا أماً

بالتنشئة خلال فترة الحمل (Foster mother) أو هى الحامل البديل (Surrogate carrier) ، أو لحظة تعاقدية (Contractual moment) أوجدتها التكنولوچيا ، وكل هذه مسببات لا تؤهلها للأمومة . ودار جدال بأن تلك القضية تحمل جانباً عنصرياً بين طياتها ، فلطالما راود تلك السيدة السوداء حلم جميل بأن تدخل العالم الأبيض. وذلك الجانب من حياتها جعل وجهة النظر العنصرية فى النظر إلى طلبها فى كفالة طفلها تلقى قبولاً كتفسير لهذا الطلب ، أكثر من إحساسها بالأمومة لمن لا ينتمى إليها وراثياً . أما عن الطفل ، فعلى الرغم من التحليل المعملى الذى حدد المادة الوراثية للطفل الوليد الذى استضافته هذه السيدة فقد اعتبروا أن هناك غموضاً فى انتمائه .

ومما لا شك فيه أن كل إنسان يحتاج لتحديد صلة النسب والقرابة ؛ حتى يشعر بكيانه ، واعتباره فرداً فى أسرة تنتمى للمجتمع الذى يعيش بداخله ، ومن واجب المجتمع أن يكفل له ذلك الحق . أما بالنسبة لحالة آنا جونسون ، فقد حاول القاضى فى المحكمة الابتدائية التمسك بأن الصلة والمودة التى تكونت بداخلها أثناء الحمل ، ورابطة الأمومة التى شعرت بها تصبح عميقة وثابتة وتبقى صامدة – فقط – من خلال أطفال تحملهم أمهاتهم . أما عندما يكون للطفل ثلاثة آباء ، فذلك يعد ضرباً من ضروب الهلوسة المستحدثة ، تلك الوسائل التى أوجدت للطفل أن يمتلك خمسة آباء . فالأسرة الحقيقية الطبيعية المتفق عليها دينياً وخلقياً ، هى التى تشمل الأب والأم والأبناء ، أما باستخدام التكولوچيا الحديثة التى أوجدت صلات وعلاقات أسرية واجتماعية غير محددة ، فلابد من إيجاد تشريع وتقنين الصلات والعلاقات بصورة قانونية لتحديد الهويات بصورة مقبولة ومميزة .

ولهذا عندما ترتبط طريقة ومنطق الروية بما أوجد العلم من تضارب بعد اتساع المجال فى طرق التناسل .. والممارسات الجديدة ، تنشأ التفسيرات لاستعادة تكوين الأسرة وتحديد صفاتها بدقة ودون تنميق للعبارات المستخدمة ؛ حتى لا تفسد هذه العلاقات . وخاصة بعد إمكانية تطبيق الإخصاب خارج الرحم ، ثم نقل الجنين لغرسه فى رحم الأم البيولوچية أو الأمر البديلة .

نظرة بيولوچية

نستطيع البدء مع نيكولاس هارتسوكر ، الذى عاش فى آخر القرن السابع عشر، حينما قرر أنه رأى شخصاً صغيراً متكوناً بداخل الحيوان المنوى ، وذلك بإمعانه النظر فى المجهر الضوئى . وقد أكد ذلك ما لخصه أرسطو قبله فى أن الحيوان المنوى نفسه هو الروح والمصدر الحيوى للأجيال ، ثم سجل علماء التشريح أن الفرق الرئيسي بـ الرجل والمرأة – بعد اختلاف الجهاز التناسلى – يكمن فى الجهاز الهيكلى . هذه الاختلافات فى الحوض وجمجمة الرأس ؛ فقد وجدوا أن جمجمة رأ

أكبر من جمجمة المرأة . وذلك يلائم وظيفة كل منهما ؛ لأن الرجل يمسك ببذور الحضارة فكرياً ، بينما عظام الحوض فى المرأة تتناسب مع وظيفتها التناسلية والاجتماعية . وتلا ذلك دراسات علماء الجماجم فى القرن التاسع عشر ، الذين أضافوا أن هناك اختلافاً بين مخ الرجل ومخ المرأة فى الحجم والشكل والوزن .

وحاول العلماء بعد ذلك اكتشاف طرق جديدة لتفسير ملاءمة تركيب الجسم لوظائفه المختلفة . وكانت دائماً النظرة الغالبة هى أن الحمل هو الوظيفة المختلفة ، ولازم تلك الرؤية اعتقاد بأن السيدة التى تنهى حملها بإرادتها تلازمها لعنة طيلة حياتها . وظلت المحاولات العلمية مستمرة لتحديد وظيفة خلايا المخ ومقارنتها مع شكل المخ وحجمه فى الرجل والمرأة وخاصة مع إتاحة الأجهزة الأكثر تطوراً ، وأيضاً تمت دراسة العظام وتحديد مكوناتها سعياً وراء تحديد السلالات والنسب من خلالها، وعمل تصنيف دقيق يقوم على الرؤية المنطقية العلمية فقط ؛ ليضفى على المعلومات قوة التفسير .

ومن الجدير بالذكر ذلك التطور الهائل الذى حدث فى طريقة النظر إلى الأشياء، والتى حددتها المجلة الطبية (Journal of Medicine) ووصفتها بأنها تغيير هام فى وجهة نظر الأطباء فى مجال طب الأجنة وعلوم الوراثة ، بعد التطور السريع المذهل الذى أوجد طفرة فى تحسين القدرة على فحص الأجنة وهى داخل الرحم ؛ فقد مكنتهم التقنيات الحديثة من وضع محتويات الرحم – الذى اعتبر مظلماً لفترة قريبة – تحت ضياء الملاحظة العلمية . رفع حجاب الغموض عن ذلك الحرم الداخلى المعتم ، وفوجئ العلماء بأن من كانوا يطلقون عليه «الجنين الخجول الغامض» ليس طفيلاً سلبياً كما اعتقدوا دائماً ، بل مخلوق صغير نشيط ، يتصرف بحرية وحركة ، فيبدو وكأنه طفل فى الثالثة من عمره بداخل حضانة مدرسية . وبعد تطوير الفحص بالموجات فوق الصوتية ، استطاع العلماء معرفة وتحديد التصرف الطبيعى للجنين فى مراحل الحمل المختلفة ، ثم تحديد ما يلزمه – إذا اقتضت الضرورة – من علاج أو تعديل أو تصحيح للوسط الذى يحيا بداخله ؛ فقد بدا الجنين كشخص واضح ، يمكن استقباله ومعرفة الصعوبات التى قد تواجهه .

وبعد تلك التطورات العلمية المستمرة ، اختلفت الرؤية للأجنة ، وبممارسة النظرة الجديدة نجدهم أطفالاً يمشون بخطى صغيرة ، لهم مشاكل أحياناً . وعلى الرغم من أنهم يعتمدون على أمهاتهم فى الغذاء ، إلا أنهم يتمتعون بقدر كبير من الاستقلالية فى تنظيم نموهم . وهذه الرؤية الجديدة أوجدت – بدورها – مجموعة من المفاهيم الثقافية والافتراضات والتوقعات ؛ وخاصة بعد إتاحة هذه المعرفة للأم ، فقد أمكنها الآن أن تعرف الحقائق وترى جنينها .. ومن هنا ينبع التساؤل : كيف يمكن لهذه الأم أن تتعايش مع هذه الرؤية الجديدة ؟ وكيف لذلك المخلوق الصغير أن يصبح فى خطر ، وهو موجود فى حصنه بداخل الرحم ؟